حرب الريف سنة 1921
مفارقة الانتصار والإحجام عن تحرير مليلية

أحمد لحميمي*

"تعتبر حرب الريف حدثا هاما في تاريخ الحركة الوطنية المغربية، كما أنها تعد أول انتفاضة فلاحيه هزت قواعد الامبريالية الأوربية، وأعطت إشارة الانطلاقة لحركة تحرير الشعوب المستعمرة"

عبد العزيز التمسماني خلوق

تعد انتصارات المقاومة الريفية سنة 1921 امتدادا للصراع الطويل المرير الذي خاضته قبائل الريف كإحدى مكونات التراب المغربي ضد الأطماع الاسبانية وطموحاتها لتوسيع مناطق احتلالها بالشمال المغربي. لذا ظلت هذه المقاومة التي تزعمها محمد عبد الكريم الخطابي والتي اعتمد فيها على قوة قبائل آيث وارياغر وتمسمان وآيث توزين... خالدة عند الريفيين، بل عندالمغاربة أجمعين، إن لم نقل عند شعوب العالم كلية، خاصة تلك الشعوب المستضعفة (المستعمَرة) التي اعتمدها ثوارها وزعماؤها كمرجعية أساسية في حركاتهم التحررية ضد الاحتلال الإمبريالي، أمثال تشـــــي غيفارا وهو شي منه،،، كما نالت اهتمامات باحثين من مختلف دول العالم على اختلاف تخصصاتهم، فضلا عن الباحثين والمؤرخين المغاربة. إذ ظلت وما تزال الكتابات خاصة التاريخية تتجدد وتكشف عن خبايا ودروس المقاومة الريفية وفي إطار البحث عن الجديد أو بعضه سنقف في هذه المساهمة عند مفارقة.الانتصار الكاسح للمقاومة الريفية، وعدم إقدام محمد عبد الكريم الخطابي ومجاهديه على تحرير مليلية.

* أستاذ باحث – الناظور

المحاولات التوسعية الإسبانية بالريف الشرقي (1909-1920)

تعددت المحاولات التوسعية للجيوش الإسبانية بالريف الشرقي خلال القرن 19 انطلاقا من مليلية، ولعل أبرزها تلك المرتبطة بردود الفعل للقبائل المجاورة والمعروفة بمقاومة سيدي ورياش 1893 والتي صدت الأطماع الاسبانية، إذ أفنت خيرة الحربين المعينين لهذه العملية، أمثال الجنرال" مارغايو"، (بلغ صدى هذه الحرب إلى أمريكا اللاتينية (كوبا) إذ كان الشاعر الكوبي خوسي مارتي يشيد بالريفيين على صفحات جريدة الوطن.) ليعود طموح التوسع بقوة سنة 1908، وقد استغل المستعمر في ذلك وضعية الريف المضطربة خاصة، والمغرب عامة، إذ كان الريفيون منشغلون بمحاربة الدعي "بوحمارة" كما استغل الضعف المادي للريفيين، إذ عمد إلى إغرائهم بالرشاوي والهدايا... إلا أن المقاوم "الشريف سيدي محمد أمزيان" حال دون تحقيق نوايا المعمر، وذلك بتحميسه الجماهير وحثها على المقاومة. وأمام هذه العرقلة أصبحت التهديدات الإسبانية على لسان الجنرال "مارينة" تلوح باستعمال القوة. فشرع هذا الأخير في مد السكك الحديدية نحو مناجم المعادن المجاورة لمدينة الناظور. وكان رد الريفيين بقيادة زعيمهم الشريف محمد أمزيان هو الهجوم على عمال السكك الحديدية في 9 يوليوز 1909 وإفشال عملية المد.. إلا أن هذه المقاومة سرعان ما ستتعثر، وذلك بمقتل زعيمها في ربيع 1912. وقد استبشر المعمر بهذا الحدث وتشجع على مواصلة الزحف، لكن هذه المرة في اتجاه شرق مليلية، فاستولى على حاسي بركان وزايو... دون أي عناء، لكن أحداثا محلية وإسبانية وأوربية ستعرقل تحركات المحتل بالريف الشرقي الذي سيعرف هدوءا نسبيا، فيما بين سنة 1912 و 1919. تريث المعمر خلال هذه الفترة، وأجل عملية توسيع النفوذ تحت ضغط مجموعة من الأحداث والمستجدات:

- الهزيمة في الجبهة الغربية: تطوان، الشاون سنة 1913[1]

[1]- علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، الدار البيضاء 1993،الطبعة الخامسة ص 120

- المنافسة الفرنسية – الاسبانية حول مناجم الريف.
- المشاكل الداخلية لإسبانيا (استياء الرأي العام الإسباني من هزائم 1909–1912، أسبوع برشلونة المأساوي: حتجاجات -اضطرابات...)[2]
- اندلاع الحرب العالمية الأولى (1914–1918)
- الثورة الثقافية الإسبانية (1917–1919)...

لم تجرؤ القوات الإسبانية على توسيع تحركاتها إلا مع سنة 1919، بتخطيطات جديدة تكفل بتنفيذها وتطبيقها مسؤولان جديدان في استعمار الريف، وهما المفوض السامي بتطوان "داماسو بيرنكير" والحاكم العام بمليلة "فيرنانديس سلفستري" الذي تولى قيادة الزحف الإسباني على الريف الشرقي.لقد منحت الحرية الكاملة للحاكمين خاصة للجنرال "سلفيستري" الذي كان يحمل رسالة ملكية تنص على حريته الكاملة في شن كل الهجومات التي يراها كفيلة بتحقيق المبتغى، وانطلاقا من هذه الحرية غير الجنرال" سلفستري" خطة الاستيلاء على الريف الشرقي والأوسط عن طريق البحر بخطة الزحف البري[3] التي انطلقت مع سنة 1919، هكذا، وفي ظرف عام ونصف (1919–1920) استطاع أن يستولى على المناطق التابعة لمدينة الناظور غربا (جبل العروي، ادريوش، عزيب ميضار، بن طيب، تافرسيت، آيث سعيد...) والتي كانت مساحتها تتجاوز مساحة كل المناطق التي استولت عليها القوات الإسبانية خلال عشر سنوات، وبدون خسائر في قواته، اللهم بعض القتلى في صفوف قوات المرتزقة المغاربة العاملين في جيوشه، كما أنه لم يجد مقاومة عنيفة باستثناء بعض المناوشات التلقائية والعفوية المحلية وغير المنسقة، خاصة وأن قبائل الريف كانت منهكة تعاني وطأة فترة مجاعة امتدت لأكثر من خمس سنوات(1915–1920). إذ لم يسجل إلا تحركان

---

[2]- ميكيل مارتين: الاستعمار الإسباني بالمغرب (1860–1956) تعريب محمد الشاوني، مجلة الجسور، عدد1 الدار البيضاء 1981 ص 71

[3]- محمد بن عزوز حكيم: معارك الثورة الريفية، الرباط 1983، ص 28

جهاديان أولهما كان من قبل قبيلة "آيث سعيد" الذي قتل فيه بعض الإسبانيين، وقبض على القائم بأعمال إسبانيا في المنطقة والمسمى "أراحو" إلا أنه افتدي بالمال، والتحرك الثاني كان على يد قبيلتي آيث وارياغر وتمسمان بقيادة عبد الكريم الخطابي (الأب) في صيف 1920، في منطقة" ثافرسيت"، ويعتبر هذا الاصطدام بين قوات الجانبين، انطلاقا للشرارة الأولى للمقاومة الخطابية (1920-1926)[4]. ورغم المكتسبات التي حققها "سلفيستري" بدسائسه وإغراءاته المتنوعة، فإنه تريث عند وصوله إلى حدود قبيلة تمسمان، التي يجهل طبيعتها الجغرافية، إلا أن طبيعته ونزعته الاستحواذية كانت طاغية عليه، فاستولى على "أنوال" في يناير 1921، وجهزه بشبكة طرقية وتلفونية، وأصبح مركزه الرئيسي بقبيلة تمسمان، ولقواته الزاحفة برا نحو قبيلة آيث وارياغر[5]. وتفائل "سلفستري" كثيرا لهذه الخطوة (الناجحة)، إذ عبر عن ذلك بقوله "إن احتلالنا لأنوال سيمكننا من مواصلة الزحف نحو الحسيمة خصوصا وأن "الموروس" لا يتوفرون إلا على حركتين، هما حركة تمسمان التي يوجد معسكرها في ثروكوت، وحركة بني ورياغل نحو الجنوب".[6] وفي إطار الاستعداد للزحف نحو قبيلة آيث وارياغر معقل المقاومة عبر رأسي"ابران" و"كيلاطيس" الواقعين في النفوذ الترابي لقبيلة تمسمان، توصل "سلفستري" بثلاث برقيات متعارضة كانت تحثه على التريث والتأني ومراجعة تصرفاته...

- الأولى من محمد عبد الكريم الخطابي، تنذره وتحذره في حالة تخطيه لنهر أمقران بتمسمان، فإن المجاهدين التمسمانيين سيقاومونه[7].

---

[4]- جرمان عياش: أصول حرب الريف، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، البيضاء 1992، ص 307 وما بعدها

[5]- David S Woolman, ABD ELKRIM y la guerra del Rif, barcelona 1971, map, P 100

[6]- محمد بن عزوز حكيم، مرجع سابق، ص 33

[7]- ميكيل مرتين، مرجع سابق ص 52

- الثانية من المفوض السامي بتطوان "داماسو بيرنكير" تعارض سياسته الارتجالية، وتحثه على التريث في حركاته.
- والثالثة من الملك الإسباني "ألفونس 13" تقول: "هيا إني أنتظر"[8].

ونظرا للحماس الفطري الذي تميز به سلفستري، انساق وراء هذه البرقية الأخيرة، فأمر قواته بالتقدم فاستولى على المراكز المجاورة لأنوال وهي: بويمجان، وسيدي إبراهيم في فبراير 1921، وفي مارس استولى على مرسى سيدي إدريس، الذي اتخذه كمنفذ بحري لتحركاته، وهو المرسى الذي اعتبره الاسبانيون نقطة استراتيجية إذ ظلت تخامرهم فكرة إنشاء قاعدة عسكرية بهذا الميناء، لكن ذلك كان مستحيلا لما كان يتطلبه المشروع من إمكانات مالية[9]. بعد ذلك اتجهت أنظار "سلفستري" إلى احتلال نقطة أكثر أهمية استراتيجيا، وتكون قريبة من حدود آيث وارياغر، والمتمثلة في "قمة أبران" خاصة وأن مفاوضات كانت قد تمت مع أعيان تمسمان التزموا فيها بعدم مقاومة إسبانيا، مقابل إطلاق سراح العمال التمسمانيين المعتقلين لدى الإسبان إثر عودتهم من الجزائر[10].

كلف الجنرال سلفستري أحد ضباطه "فيبار" في 1 يونيو 1921 بالسيطرة على قمة "أبران". وبالرغم من تحذيرات بعض قواده بخطورة العمل المقدم عليه، فإنه انساق وراء تشجيعات بعض عملائه الذين قادوه إلى القمة المستهدفة، وبالفعل تمت السيطرة عليها دون أي عارض يعوق الحملة العسكرية، وبعد الانتهاء من عملية السيطرة على أبران، قرر الضابط "فيبار" العودة إلى أنوال مكتفيا بوضع المركز الجديد تحت إمرة حامية عسكرية فقط، خاصة وأن مؤشرات المواجهة كانت منعدمة. وابتهجت القوة العسكرية الإسبانية لهذه الخطوة (الإيجابية) في الطريق نحو الحسيمة، إذ صرح سلفستري مستهزئا بالاعتراضات التي أبداها

8- ميكيل مرتين، نفس المرجع ونفس الصفحة

9 - Fernandez de la regura y Susana MARCH : EL desastre de annual ; barcelona 8 edicion 1975 p52

10- جرمان عياش، مرجع سابق، ص 301

مساعدوه عن هذه الخطوة، فقال: "إني كنت على حق عندما خططت للاستيلاء على هذا المركز (أبران) وقد كنتم تعارضونني، فها هو "أبران" قد تم احتلاله، و لم يسمع أحد منكم ولو طلقة نارية واحدة، وها هو الجيش الإسباني يتركز بذلك المكان ويقوم بتحصينة".[11] وقال في شخص محمد عبد الكريم الخطابي "هذا الرجل بليد... ولن آخذ مأخذ الجد تهديداته، قائد بربري صغير.. وأن وقاحته تستحق عقابا جديدا.."[12]

انتصار المقاومة الريفية سنة 1921

كان للعمل العسكري السابق (احتلال أبران) انعكاسات خطيرة لم تكن تخطر ببال سلفستري ومساعديه، إذ ستنطلق مرحلة الهزيمة والتراجع، وتهديم كل ما قامت به القوات الإسبانية من غزو في الريف الشرقي فيما بين 1909 و 1921، إذ ستصطدم قوات سلفستري مع مجاهدي محمد عبد الكريم الخطابي في سلسلة من المعارك انطلاقا من معركة ادهار أبران، ومعركة سيدي إدريس، ومعركة سيدي إبراهيم، ومعركة بويمجان، إلى معركتي إغريبن وأنوال. وسأركز على ثلاث معارك لأهميتها: أبران، وإغريبن وأنوال.

- معركة "ادهار أبران"

في مساء نفس يوم احتلال "أبران" (1 يونيو 1921) عمد المجاهدون إلى مواجهة القوة الإسبانية بهذا المركز الجديد، وإنهاء احتلالها له، إذ لم ينج من الجنود إلا القلة عبر تستللهم وهروبهم إلى "أنوال" أو "سيدي ادريس" وبذلك لم تدم سيطرة الإسبان على "أبران" إلا سويعات معدودة.

تتمثل أهمية هذه المعركة في وقعها الكبير والمزدوج على الجانبين المنهزم والمنتصر: فبالنسبة للمجاهدين: أصبحوا أقوياء معنويا: وذلك بتوافد جموع من المجاهدين الجدد الذين عززوا صفوفهم. وأصبحوا أقوياء ماديا: بامتلاكهم لأسلحة مهمة غنموها (البنادق والمدافع...) سيستعملونها في المعارك اللاحقة. مقابل بساطة الأسلحة التي

---

[11]- محمد بن عزوز حكيم: معركة أنوال، الرباط، 1981 ص 44

[12]- ميكيل مارتين: نفس المرجع السابق ص 52

استعملوها في المعركة نفسها والتي تتمثل في بعض البنادق (موسى) وأدوات فلاحية (مناجل) بل وبدائية أحيانا (حجارة). أما بالنسبة للقوة الإسبانية: التي كانت تستقر وتتمركز في مركزها الرئيسي "أنوال" والتي كانت تتابع عن قرب وعن كثب ما يحدث في "أبران" والذي لم يمكث بيدها إلا بضع ساعات فقط، فقد أبرقت إلى الجنرال سلفستري حاكم مليلية وإلى الجينرال بيرنكر المفوض السامي بتطوان تخبرهما بالهزيمة، وقد كان هذا الخبر صعب التصديق خصوصا من قبل سلفستري الذي لم يمض على مغادرته "أنوال" يوم واحد، وكان لا يزال يعيش منتشيا بفرحة احتلال "أبران". لكن كثرة البرقيات حول موضوع الهزيمة جعلته يصدق خاصة عندما توصل بالبرقية الأخيرة من أنوال، والتي تقول "وصل الآن جنديان استطاعا الهروب من أنوال ويحكيان كيف أن المركز قد دمر عن آخره، وقتل من كان به، وسقط بيد العدو كل المدافع والأسلحة والعتاد والعدة التي كانت به"[13].

بعد التأكد من الهزيمة أصبح الجينرال سلفستري يحسب للمجاهدين ألف حساب ويحتاط منهم، إذ عزز مركز "أنوال" بقواته التي كانت ترابط بالمراكز المجاورة مثل مركز ادريوش، وذلك تفاديا لسقوط المراكز الأخرى بيد الثوار، خاصة وأن المجاهدين قد هاجموا مركزا آخر وهو ميناء سيدي ادريس في 3 يونيو، لكن الهجوم لم ينجح في تحرير المركز نتيجة الدعم الكبير الذي تلقته القوة الإسبانية عن طريق البحر وقد يكون ربما بسبب غياب عبد الكريم الذي لم يكن على علم بذلك الهجوم[14].

عموما زعزعت وقعة "أبران" الوجود الإسباني بالريف، خاصة وأن الهزيمة أفشلت المخطط الإسباني الرامي إلى الاستيلاء على باهية الحسيمة عن طريق البر، وعبر احتلال "أبران" و"رأس الطرف": إذ نجد المفوض السامي بيرنكر يبحر من تطوان إلى ميناء سيدي إدريس لمقابلة سلفستري، قصد التعرف على ظروف وملابسات

---

[13]- محمد بن عزوز حكيم: معركة أنوال، مرجع سبق ص 53

[14]- محمد محمد عمرو والقاضي: أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي، مذكرات عن حرب الريف، تطوان 1979، ص 114

الهزيمة التي ظلت غامضة عنده، كما أخبر بذلك وزارة الدفاع الإسبانية، واعتبر الهزيمة مفاجأة كانت نتيجة عدم التفاهم بينه وبين سلفستري "كما كانت الهزيمة مصدرا للتأكد من موقف لم يعهد من قبل في تمسمان وبني ورياغل"[15] أي المقاومة. أما سلفستري فحاول التغطية على النكسة بزحفه وسيطرته على موقع جديد قريب من "أنوال" وهو ربوة "إغريبن" و لم يكلفه ذلك أية خسارة، الشيء الذي جعل بعض المسؤولين الإسبان يتنبأون لأغريبن بنفس المصير الذي لحق ب"أبران" وذلك ما سيتحقق فعلا.[16]

- معركة إغريبن

قبل هجوم المجاهدين على المركز الجديد المحتل، وفي إطار التخطيط لذلك، نقل الزعيم محمد عبد الكريم الخطابي مركز تسيير المقاومة من جبل" القامة" إلى قرية "أمزاورو" لمراقبة تحركات العدو بأنوال والمراكز المجاورة له عن قرب. وفي 12 يونيو عقد جمعا عاما برئاسته لدراسة موضوع استرجاع "إغريبن"، وتمهيدا لهذا الغرض استرجع المجاهدون مراكز ثانوية كمركزي بويمجان وسيدي إبراهيم (16 يونيو 1921) تم هذا الاسترجاع بدون عناء كبير بفضل الخطة الحربية المحكمة التي رسمها لهم محمد عبد الكريم الخطابي، كما اعترف بذلك الملازم الإسباني "كسادو" في كتابه "إغريبن"[17]

وتدخل هاتان العمليتْان ضمن خطة عزل مركز "أنوال" عن المراكز القريبة منه، كما تدخل في إطار الاقتراب من "إغريبن" لأجل تحريره، وذلك ما لم يكن مستبعدا عند القوات الإسبانية التي عززت وجودها في مركز "أنوال" وحاولت الضغط على محمد عبد الكريم الخطابي ومناوشته بمنطقة الحسيمة، وكل ما استطاعت أن تصل إليه المناوشات الإسبانية بسواحل الحسيمة هو تأخير موعد الاشتباك في إغريبن لما يقرب من شهر. إذن فما هي أطوار معركة إغريبن؟ وما هي خصائصها وأهميتها؟

[15]- أحمد البوعياشي: حرب الريف التحررية ومراحل النضال، الجزء 2، طنجة 1975، ص 74

[16]- محمد بن عزوز حكيم: نفس المرجع السابق، ص 61

[17]- محمد بن عزوز حكيم، نفس المرجع، ص 71

بعد استرجاع مركزي "بويمجان" و"سيدي إبراهيم" اقترب المجاهدون من موقع "إغريبن" الذي برهنوا فيه على حنكتهم ومهارتهم الحربية، إذ طبقوا عليه خطة الحصار التي رسمها لهم محمد عبد الكريم الخطابي من (16 يوليوز على 21 منه عام 1921) وذلك بالتخندق حول "إغريبن" "فحفر 25 خندقا يتسع الواحد لخمسة أفراد"[18] وقطعوا كل الإمدادات والتموينات الآتية من أنوال في إطار محاولة فك الحصار. وكانت الضربة القاضية لمركز "إغريبن" عندما أدرك المجاهدون نقطة ضعف الجنود الإسبان المحاصرين، والمتمثلة في اعتمادهم على استهلاك مياه "عين عبد الرحمن" بوادي الحمام الفاصل بين إغريبن وأنوال، فركزوا حصارهم حول هذا المنبع المائي، وأصبح المحاصرون في حالة بئيسة، إذ أصبحت الحياة مستبعدة عندهم من شدة العطش، فلم يعودوا يفكرون في الطعام بل أصبحوا يفكرون فقط في الماء لإرواء ظمأهم خاصة أن الموسم موسم الصيف الحار، لدرجة أنهم اضطروا إلى شرب عصير التوابل والطماطم والمداد لعق الأحجار، بل وصل بهم الأمر إلى شرب بولهم بعد تحليته بالسكر[19]. وللوقوف أكثر على مدى حدة المأساة عند الجنود المحاصرين نورد تصريحات بعضهم من الذين يئسوا من الحياة لشدة الحصار. ففي هذا الموضوع قال أحدهم (لا يستطيع أحد الخروج حيا من هذه المأساة، ولو وجد معنا الإله) وقال آخر (لا يستريح في هذه المنطقة إلا الأموات) وفي موضوع الماء قال أحدهم (إنه مقابل قطرة ماء سأضحي بعشر سنوات من حياتي)[20]. أما قائد المركز المحاصر "بنطيس" فكاد أن يستسلم لولا توصله يوم 19 يوليوز بتطمينات وتشجيعات من الجنرال سلفستري الذي أمر مسؤول مركز أنوال بإغاثة إغريبن، مهما كلفه من ثمن. أما محمد عبد الكريم الخطابي فكان على بينة مما يقوم به العدو من تحركات، فرد

[18]- سعيد الخطابي: الأمير المجاهد عبد الكريم الخطابي والسلام في البحر الأبيض المتوسط، مجلة أمل العدد 12 البيضاء 1997، ص 33

[19]- ميكيل مارتين: مرجع سابق، ص 52،

-وأيضا Woolman, ibid, p107

[20]- Fernandez de la regura y Susana MARCH: ibid, p 162, 179, 188

عليها بتكثيفه لقواته وتنبيهه للمجاهدين إلى كون هذه المعركة حاسمة في إفناء العدو[21].

ورغم تحمل سلفستري شخصيا مسؤولية فك الحصار يوم 20 يوليوز انطلاقا من أنوال، فالفشل كان في انتظاره، مما جعله يبرق إلى بنطيس قائد إغريبن يأمره بالانسحاب، ولم يخضع هذا الأخير للأمر، إلا بعد إلحاح من سلفستري، وكانت عملية الانسحاب يوم 21 يوليوز اندحارا مأساويا من كل الجوانب، إذ خرج من تبقى حيا من جنود العدو من المركز المحاصر في محاولة للفرار نحو أنوال، فما كان على المجاهدين إلا ملاحقتهم والفتك بهم.هكذا انتهت معركة "إغريبن" التي اندهش أمامها الجنرال سلفستري، جندي كوبا المدلل الذي غابت عنه خططه وبراعته الحربية، بل ظل يشاهد ما كان يحدث لقواته دون أن يحرك ساكنا.

- معركة أنوال

في ليلة 21-22 يوليوز اكتفى سلفستري باستدعاء ضباطه معلنا انسحابه من المركز الرئيس "أنوال" دون أن يضع خطة لذلك الانسحاب. فخرجت قوات العدو من "أنوال" في شكل فوضوي تخلى على إثره المسؤولون العسكريون عن مسؤولياتهم التنظيمية (نزع شارات رتبهم حتى يعطف عليهم المجاهدون، لكون محمد عبد الكريم الخطابي كان يوصي جنوده بالفتك بالجنود ذوي الرتب العليا) اكتفى المجاهدون بملاحقة هذه الجموع الفارة من الجنود الإسبانيين نحو مليلية وإطلاق النار عليها[22]، فكثر القتلى والجرحى في صفوف العدو لحد وصف "أنوال" بالجبل الأحمر. وتمكن المجاهدون من ملاحقة القوات الإسبانية من "أنوال" إلى "العروي" على مدى مسافة تقدر بسبعين كيلومترا، كان خلالها المنهزمون مرتبكون وفارون في شكل فوضوي بدون مقاومة أو دفاع ورغم محاولة الجينرال "نافارو" المسؤول الثاني بعد سلفستري

---

[21]- محمد محمد عمرو والقاضي، مرجع سابق ص 121

[22]- ميكيل مارتين، نفس المرجع السابق الذكر، ص 53 و62؛

* قورنت هذه المعركة بمعركة نومينصا التي انهزم فيها الإسبان أمام الرومان، وكان الفضل في تحقيق الفوز للرومان للقائد الأمازيغي يوغرطة، الذي أوفده عمه مسبسا لمساندة الرومان.

(الذي لقى حتفه بأنوال) إيقاف هذا الاندحار العام بجمعه لحوالي 3000 جندي بمركز العروي (29 يوليوز 1921) إلا أنه فشل إثر حصار المجاهدين لهذا المركز وإفشالهم هذه المحاولة بقضائهم على فلول الجنود الإسبان في 9 غشت 1921*، فحرروا باقي المناطق والمراكز إلى أن وقفوا عند أبواب مليلية التي كان دخولهم إليها منتظرا.

تلك كانت نظرة مقتضبة حول الانتصار الريفي الذي عرف ب"انتصار أنوال" أو "كارثة أنوال" عند الإسبانيين EL desastre de Annual هذا الحدث ارتبط به وصف آخر لحرب الريف، وهو "حرب العصابات" وقبل تناول أسباب عدم تحرير مليلية سأقف عند النقطتين السابقتين، أي انتصار أنوال وحرب العصابات.

انتصار أنوال: من خلال العرض السابق، يتضح أن معركة "أنوال" لم تكن إلا خاتمة للانتصار الحقيقي الذي تقرر في معركة "إغريبن" وذلك بتطبيق خطة الحصار لمدة ستة أيام. ولأن معركة "أنوال" لا تتوفر فيها حتى المواصفات الشكلية للمعركة المتمثلة في المواجهة بين عدوين متحاربين، في هذه المعركة "أنوال" نجد جموعا من الجنود المنسحبين الفارين وفي شكل فوضوي على إثر إعلان قائدهم سلفستري على ذلك ليلة 21-22 يوليوز، واكتفى المجاهدون بملاحقتهم بدون عناء يذكر.وفي هذا الموضوع يقول محمد بن عزوز حكيم في كتابة "معركة أنوال:" وهنا يجب أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى شيء وجب إيضاحه، وهو أن المعركة الحقيقية التي كانت أكبر هزيمة عرفها جيش دولة استعمارية في العالم خلال القرن 20 لم تجر بأنوال كما يعتقد الجميع، بل جرت بإغريبن يوم 21 يوليوز 1921، وذلك لأن الذي وقع يوم 22 يوليوز وما يليه ما كان إلا مجزرة تعرض لها جيش إسباني في حالة فرار، فلم تكن بأنوال معركة بالمعنى الصحيح"[23] كما فطن دافيد مونتغمري هارت إلى هذه المسألة، إذ يذهب إلى أن أحداث 1921 تعرف عند سكان المنطقة "بظهر أبران"، ويسميها

[23]- محمد بن عزوز حكيم: نفس المرجع السابق ص 15

الأسبانيون بأنوال[24] وهذه الملاحظة تتوافق مع ما تحتفظ به الذاكرة الشعبية من أشعار معاصرة لهذه المقاومة والمعنونة ب "أدهار أبران" والتي تشيد وتمجد ادهار أبران وإغريبن وتشير إلى أنوال بشكل عابر فقط[25].

وربما يرجع الصدى الذي أصبح لأنوال لأهمية الخسائر الإسبانية من قتلى وجرحى وأسرى وأسلحة وعتاد عسكري ونفقات باهضة امتصت ميزانية الدولة الإسبانية والتي تضاربت الأرقام حولها حسب اختلاف المراجع.

وقد يكون هذا الصدى لأنوال مرده إلى كون المنطقة كانت بمثابة المركز الرئيس للقوة الإسبانية بالجبهة العسكرية المتقدمة والزاحفة نحو معقل المقاومة الريفية بقبيلة آيث وارياغر، خاصة وأن الكتابات الأولى عن هذه المقاومة الريفية إسبانية (أوروبية) اعتمدت الأرشيف العسكري كمرجعية أساسية لأبحاثها.وقد يكون الأمر يتعلق بصعوبة نطق وكتابة الأجانب للمواقع السابقة كادهار أبران وأغريبن، وإذا كتبت فإنها تكتب خطأ، فمثلا إغريبن كتبت إجريبن، أو إكوريبن، أو إغربيا، في حين يسهل كتابة ونطق أنوال.

الإشكالية الثانية التي تستدعي منا التوقف وإعادة النظر فيها هي نعت المقاومة الريفية ب"حرب العصابات" في حين يمكن أن نسميها فضلا عن ذلك "بحرب الخطة العسكرية المتمثلة في "خطة الحصار" والتخندق التي طبقت في معركة إغريبن، لمدة تقترب من الأسبوع، فضلا عن كونها حرب عصابات كما حدث في معركة أبران، التي كانت مباغتة كما سبق أن تناولنا. بل إن خطة الحصار طريقة أملتها القيادة الخطابية على جبهة المقاومة بمنطقة جبالة (قبيلة بني رزين) في اطار توجيه وتنظيم المقاومة ضد العدو الاسباني بهذه الجبهة، إذ نقرأ في رسالة من امحمد عبد الكريم الخطابي (شقيق عبد الكريم الخطابي) إلى القائد اليزيد (بني رزين ونواحيها) المؤرخة

[24]- دافيد مونتكمري هارت: من الريفوبليك إلى الريبوبليك، المؤسسات الاجتماعية وإصلاحات الريف، مجلة أمل، عدد 12 سنة 1997، ص 54

[25]- أحمد لحميمي: قراءة تاريخية لملحمة ادهار ابران، مجلة أمل عدد 8 البيضاء 1996، ص 23

يوم 12 صفر 1343 (1924) ما نصه "فالمطلوب الأهم هو التضييق به والحصر عليه حتى ينقطع عنه الزاد والمدد والماء ويقع الظفر به..." وفي رسالة أخرى موجهة إلى نفس القائد نجد "...وبعد، فكن على بال ولا تغفل عن التضييق بالعدو وهدم ما هناك من القناطر بين الأربعاء ودار قوبع... كما تقطع عنهم الماء والزاد والمدد، وإياك والغفلة..."[26]

عموما يمكن القول إن حرب الريف لسنة 1921 حرب زاوجت بين المفاجأة والمباغتة (العصابات) والخطة العسكرية (الحصار).

وبعد هذا التقييم لأحداث حرب الريف سنة 1921 سننتقل إلى محاولة الكشف عن أسباب عدم تحرير الزعيم محمد عبد الكريم الخطابي ومجاهديه لمدينة مليلية.

لماذا لم يحرر محمد عبد الكريم الخطابي ومجاهدوه مدينة مليلية؟

بعد هذا الانتصار الكاسح الذي وصل اجتياحه عند أبواب مليلية، والذي أربك القوات الإسبانية سواء المتواجدة في الريف أو في إسبانيا نفسها: إذ كانت القوات المتواجدة داخل مليلية تترقب دخول المجاهدين إليها وتحريرها بين الفينة والأخرى في جو من الهلع والذعر. ففي هذا المجال يصف الإسباني خوان بيرنكر في قصته "مليلية المرغوب فيها" الأجواء العامة للمدينة قائلا: "في صباح 23 يوليوز 1921 نشر أحدهم خبر زحف المغاربة على الطريق الأمامي للناظور، واستعدادهم للدخول إلى المدينة (مليلية) وكانت بعض الدقائق كافية لينتشر الخبر في كل أرجاء مليلية، مما أدى إلى حركة لا تنسى، يهرب الناس في الشوارع طائشين طالبين ملجأ، بالقلعة القديمة – فناءات الثكنات العسكرية تظهر في حالة هجوم، الناس يهرعون ويصرخون وكأن المتمردين قادمون"[27]، من خلال هذا الوصف يتضح جليا أن ميزان القوى كان لصالح محمد بن عبد الكريم الخطابي والمجاهدين لتحرير مليلية،

[26]– بوشتى بوعسرية: علاقة محمد عبد الكريم الخطابي مع قواد قبائل الريف، قائد بني رزين نموذجا، مجلة أمل عدد 8 البيضاء 1996، ص 37

[27]- Enrique CARABAZA y Maximo de SANTOS : melilla y ceuta las ultima colonia, talasa edicion 1992, P60

فدخولهم إلى المدينة كان منتظرا ومرتقبا عند الإسبانيين، الذين كانوا ينظرون إلى البحر استعدادا للهروب باحثين عن باخرة تقلهم إلى مالقة كما ذكر ذلك ميكيل مارتين[28]. في مقابل هذا الهلع والاضطراب النفسي، كان المجاهدون الريفيون يتمتعون بمعنويات عالية جدا، يعيشون نشوة الانتصار، خاصة بعد أن تكاثر عدد الملتحقين بصف الجهاد، وفرار المغاربة النظاميين من القوات العسكرية الإسبانية، والتحاقهم بإخوانهم المجاهدين في سبيل وطنهم. إذن فالسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح، هو: لماذا لم يقدم المجاهدون وزعيمهم على تحرير مليلية؟

يمكن استخلاص الإجابة والتبريرات من خلال مصادر متعددة: تصريحات محمد عبد الكريم الخطابي، أو من تصريحات مساعديه الأقربين، أو من خلال الواقع المفروض والمعيش آنذاك. في هذا الموضوع صرح محمد عبد الكريم الخطابي لأحد الصحفيين (ج. ماتيو) وهو في طريقه إلى المنفى سنة 1926 على إثر معركة "جبل العروي"، وصلت إلى أسوار مليلية وتوقفت، وكان جهازي العسكري مازال في طور النشوء، فكان لابد من السير بحكمة. وعلمت أن الحكومة الإسبانية وجهت نداء عاليا إلى مجموع البلاد، وتستعد لأن توجه إلى المغرب كل ما لديها من إمدادات، فاهتممت أنا من جهتي بمضاعفة قواي وإعادة تنظيمها، فوجهت نداء إلى كل سكان الريف الغربي، وألححت على جنودي وعلى الكتائب الجديدة الواردة مؤخرا على أن لا يفتكوا بالأسرى، ولا يسيئوا معاملتهم"[29]

يتضح من هذا التصريح لمحمد بن عبد الكريم الخطابي الذي كان يمثل المقاومة الريفية، والكلام الأسبق لبيرنكر الذي كان يمثل الغزو الاسباني، أن كلا الطرفين كانا يهابان الواحد الآخر هيبة يشوبها الحذر ويحسبان لبعضهما ألف حساب: فبيرنكر في وصفه لأحوال مليلية المرتبكة كان يترقب ومعه الإسبان هجوم المقاومين على مليلية لتحريرها، لكن في المقابل كان محمد عبد الكريم الخطابي متخوفا من القوة

---

[28]- ميكيل مارتين، نفس المرجع المذكور، ص 54

[29]- أورده محمد زنيبر: حرب الريف، محمد عبد الكريم، مذكرات التراث المغربي، ج5 مدريد 1985، ص 179

الاستعمارية وأجهزتها واستعداداتها للهجوم من جديد على الريف. عموما نحن هنا أمام" لحظة باردة" التزم فيها الطرفان حدودهما.ويتمثل السبب الثاني الذي جعل محمد عبد الكريم الخطابي يتريث ويحجم عن الدخول إلى مليلية في التخوف من انعكاسات هذا الدخول في الأوساط الامبريالية العالمية التي كانت تعرقل وتناهض كل الحركات التحررية في العالم، واحتمال استنجاد إسبانيا بها إذ أضاف قائلا: "ولكنني أوصيتهم (المجاهدون) في نفس الوقت، وبنفس التوكيد على أن لا يحتلوا مليلية، اجتنابا لإثارة تعقيدات دولية، وأنا نادم على ذلك بمرارة، وكانت هذه غلطتي الكبرى"[30] ويمكن استخلاص السبب الثالث من الواقع الاقتصادي للريف، إذ أن سكان المنطقة، ومنهم المجاهدون، كانوا يعتمدون في موارد عيشهم على الإنتاج الفلاحي المحلي، وبما أن زمن الحرب تزامن مع موسم الجني وجمع المحاصيل الزراعية (فصل الصيف) فالمجاهدون ربما انشغلوا بالعمل الفلاحي، وانصرفوا عن المقاومة، إذ يذهب دافيد وولمان من خلال مقابلة له مع أزرقان، وهو أحد مساعدي الخطابي، "إلى أن الريفيين أعياهم القتال، وأن الموسم موسم الحصاد وجمع الغلة، وارتاحوا لما حققوه من انتصارات بعد أن أعياهم قطع الرؤوس"[31]. ومسألة الغذاء وضمان موارد العيش السنوي عرقل دائما المقاومة لدرجة التخلي عنها، كما حدث لمقاومة الشريف محمد أمزيان عندما هاجر الريفيون إلى الجزائر بحثا عن عمل يؤمن غذاءهم، إذ كتب محمد عبد الكريم الخطابي في تلغراف الريف عدد 11 مايو 1912 "قد ترك عدد وافر من المغاربة الحركة، وقصدوا وهران للشغل في الحصاد، والشريف مستاء من ذلك". أما السبب الرابع فيتمثل في التزام محمد عبد الكريم الخطابي بأخلاقيات الحرب التي تحترم وتوقر المدنيين وتضمن حقوقهم في الحياة، خاصة وأن مليلية كان بها مدنيون، فضلا عن القوة العسكرية، إذ قال "أي انتصار هذا الذي يستحق أن يقال عنه انتصار، إذا كان الطريق إليه يمر على جثث الأطفال والشيوخ والأبرياء،

---

[30]- محمد زنيبر: نفس المرجع ونفس الصفحة

[31]- D. Woolman, ibid P112-113

هذا الانتصار عار على القيم الإنسانية"[32]هذا الهاجس أي الائتمان على أرواح الأبرياء (لكن هذه المرة على أرواح المغاربة) يدفع الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى الاستسلام على إثر التحالف الإسباني الفرنسي عام 1926، واستعمال هذا التحالف لأسلحة فتاكة، منها الغازات السامة، لما تبين له أن الاستمرار في المقاومة سيكون له عواقب وخيمة وكارثية على أرواح المجاهدين وأرضهم وذويهم، ففضل أن يسلم نفسه لفرنسا فداء للمجاهدين. بل إن هذا الاحترام والسلوك الإنساني عرف به هذا الزعيم ليس فقط تجاه المدنيين، بل حتى تجاه العسكريين، إذ شدد في عقاب كل معتد على العسكريين المستسلمين، ففي أحد النصوص التي أوردها محمد زنيبر نقرأ ما يلي: "أثناء حرب الريف، منع محمد عبد الكريم الخطابي بصورة قطعية جنوده من النهب والانتقام، بأمرهم باحترام الجنود الذين وضعوا السلاح، وإلا سيكون العقاب هو الموت"[33]ونفس المعاملة المبنية على الاحترام وعدم الاعتداء، حظي بها أسرى الحرب كما ذكر ذلك أحمد البوعياشي[34]. هذه القيم والمبادئ وروح التسامح الإنساني طغت على الزعيم محمد عبد الكريم الخطابي حتى في المعارك التي خاضها مع جنود الاحتلال، والتي وقفنا عندها سابقا، إذ قبل كل وقعة عسكرية، كان يناشد العسكريين ويطلب منهم الاستسلام حقنا للدماء، وفي ذا الموضوع يقول نجله سعيد بن محمد عبد الكريم الخطابي "وحقنا للدماء، أرسل عبد الكريم إلى قائد حامية إغريبن يناشده الاستسلام لإنقاذ جنده.. ومرة أخرى عندما انسحب الجيش الإسباني باتجاه العروي بقيادة نافارو، أرسل إليه عبد الكريم يطلب منه الاستسلام حقنا للدماء، ولكن قوبل بالرفض الإسباني المعتاد"[35] بل فتك الجنود الإسبانيين بالريفيين المبعوثين للتفاوض معهم[36]. ويمكن إضافة سبب خامس لعدم

---

[32]- سعيد عبد الكريم الخطابي، نفس المرجع السابق ص 34

[33]- محمد زنيبر: نفس المرجع السابق، ص 181

[34]- أحمد البوعياشي، مرجع مذكور ص 144 وما بعدها

[35]- سعيد عبد الكريم الخطابي: مرجع مذكور، ص 33

[36]- ميكيل مارتين، المرجع نفسه، ص 53

اقتفاء أثر الجنود المنهزمين وإحجام محمد عبد الكريم الخطابي عن تحرير مليلية، والذي يتمثل في إتاحة الفرصة للحكومة الإسبانية لمراجعة الذات، وتقديم النقد الذاتي لنفسها حول المغامرة التي دخلت فيها والاعتداءات المجانية التي قامت بها ضد الشعب المغربي من سلب لحريته وانتهاك لحرمته وسيادته. إذ يقول سعيد الخطابي نجل الزعيم في موضوع عدم تحرير مليلية "أراد أن يتيح للحكومة الإسبانية ولشعبها فرصة مراجعة أنفسهم والمثول إلى الحق"[37]

على كل حال، بقيت مليلية في يد الاستعماريين بسبب انعدام القرار لدى الريفيين، وليس نتيجة بسالة جيش مهزوم كما يقول ميكيل مارتين[38]. ورغم ذلك كان لحرب الريف انعكاسات على الأوضاع العامة بإسبانيا، اقتصاديا، اجتماعيا وسياسيا. بل تعدى الأثر إسبانيا ليشمل القوى الامبريالية التي فزعت من هذا الانتصار، في حين صفقت له دول أخرى خاصة المستضعفة التي كانت ترى فيه الحلقة الأولى لتحررها من السيطرة الاستعمارية.

ختاما تذكرنا هذه المفارقة بمفارقة عاشها المغرب مع بداية القرن الحادي عشر الميلادي، ارتبطت بمعركة "الزلاقة" التي اكتفى فيها المحاربون المغاربة القادمون من تخوم الصحراء من قبائل صنهاجة المرابطية بقيادة يوسف بن تاشفين، بعد استنجاد من ملوك الطوائف بالأندلس لرد الاعتداءات المسيحية، والتي كان النصر فيها لصالح الصنهاجيين بعد اكتساحهم جنوب الأندلس وتوغلهم نحو الشمال، إلا أن هؤلاء اكتفوا بالانتصار دون ملاحقة فلول المسيحيين المنهزمين، رغم الوقع والصدى الذي كان لهذه الحرب والذي عكسته الكتابات المعاصرة للمرحلة لدرجة ظهور اتجاه أدبي عرف ب"أدب الزلاقة".

---

[37]- سعيد عبد الكريم الخطابي، نفس المرجع ص34

[38]- ميكيل مارتين، نفس المرجع ص 54